تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه : داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والاخرة والملك والتمكين التام في الدنيا والنبوة والرسالة في الدين ولهذا قال تعالى : { ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين } قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام أخبرني أبي عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن ا لم ينعم على عبده نعمة فيحمد ا عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب ا المنزل قال ا تعالى : { ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين } فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام .

وقوله تعالى : { وورث سليمان داود } أي في الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود فإنه قد كان لدواد مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول ا صلى ا عليه وسلّم في قوله : [نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة] وقال : { يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء } أي أخبر سليمان بنعم ا عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر ا به ورسوله ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ولكن ا سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور في الهواء وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى : { علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء } أي مما يحتاج إليه الملك { إن هذا لهو الفضل المبين } أي الظاهر البين علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة Bه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ـ قال ـ فخرج

ذات يوم وأغلقت الأبواب فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ واﷲ لنفتضحن بداود فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود : من أنت ؟ فقال : الذي لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجاب فقال داود : أنت إذا واﷲ ملك الموت مرحبا بأمر اﷲ فتزمل داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان عليه السلام للطير : أظلي داود فظللت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض فقال لها سليمان : اقبضي جناحا جناحا] قال أبو هريرة : [يا رسول اﷲ كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول اﷲ يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية] قال أبو الفرج بن الجوزي : المضرحية هن النسور الحمراء .

وقوله تعالى : { وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون } أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس وكانوا هم الذين يلونه والجن وهم بعدهم في المنزلة والطير ومنزلتها فوق رأسه فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها وقوله : { فهم يوزعون } أي يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : { حتى إذا أتوا على واد النمل } أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل { قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون } أورد ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن أن اسم هذه النملة حرس وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها { فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه } أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك { وأن أعمل صالحا ترضاه } أي عملا تحبه وترضاه { وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين } أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك والرفيق الأعلى من أوليائك ومن قال من المفسرين أن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها .

وعن نوف البكالي أنه قال : كان نمل سليمان أمثال الذئاب هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناة من تحت وإنما هو بالباء الموحدة وذلك تصحيف واﷲ أعلم والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكا من ذلك وهذا أمرعظيم جدا وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق

الناجي قال : خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك وإلا تسقنا تهلكنا فقال سليمان : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال : [قرصت نبيا من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى ا إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ؟]